المقاومة المقدسية والأفق الأنطولوجي لاجتثاث روح الشر من العالم

The sacred resistance and the ontological horizon for uprooting the spirit of evil from the world

د. أحمد الفراك[1]

Dr. Ahmed Elfarrek

ملخص البحث:

يعالج هذا المقال سيطرة "روح الشر" في العالم واستفسادها للأخلاق والأوطان، والتفكير في كيفية اجتثاث جرثومة هذا الشر المستطير، من خلال توسيع نموذج المقاومة المقدسية لتصير مقاومة إنسانية أخلاقية ائتمانية للشر حيثما وُجد الشر ووُجد من يؤيده ويضع يده في يده، وحيثما أُلحق الأذى بالإنسان وحصل الفساد في العمران، حتى تصير المقاومة روحا رباطية تسري في قلب الإنسانية وتنتصر للقيم الأخلاقية الفضلى رغم التضليل الذي تمارسه كيانات الشر على البشر.

المحور الأول: وخصصته لدلالات الروح الرباطية، بوصفها روحا مؤسِّسة للقوة وجامعة للطاقات ومتوسلة بمختلف الأسباب المادية والمعنوية ومتجدِّدة غير جامدة على وسيلة أو طريقة في مواجهة الشر والاحتلال. أما المحور الثاني، فرتبتُ فيه خصائص المرابطة المقدسية، بوصفها مرابطة مقاوِمة لا حركة مُطبِّعة، ومرابطة إشهادية لا دعوى تزييفية، ومرابطة مستقبلية لا حملة زمنية. وأخيرا المحور الثالث، وهو تتويج للمحورين السابقين، فقد جعلته في الأفق الأنطولوجي/الكياني للمرابطة، لمعالجة التحدّيات الكيانيّة الوجودية المعاصرة التي تُواجه الأمة الإسلامية والعربية، وتتعلق بوجودها ووجهتها ومصيرها في عالم تم توصيفه بأنه "عالم بلا حياء" و"عالم بلا أمانة".

[**الكلمات المفاتيح:** فلسطين - القدس - المرابطة - الاحتلال - الثغور - الشر]

Absract

This article deals with the control of the "spirit of evil" in the world and its corruption of morals and nations, and thinking about how to uproot the germ of this absolute evil, by expanding the model of sacred resistance to be a moral human resistance to evil wherever evil exists and there is someone who supports it and puts his hand in his hand, and wherever harm is caused

(1) أستاذ الفلسفة بجامعة عبد المالك السعدي، تطوان.

to a person and occurs. Corruption in urbanism, until resistance becomes a moral spirit that flows into the heart of humanity and triumphs for virtuous moral values despite the deception practiced by evil entities on humans.

The first axis: specific to the connotations of the spirit of resistance, as it is a spirit that establishes power, gathers energies, invokes various material and moral causes, and is renewed and not fixed on a means or method in confronting evil and occupation. As for the second axis, I organized the characteristics of the Jerusalemite movement, as resistance without normalization, and an association without falsification. Finally, the third axis, which is the culmination of the previous two axes, has placed it on the ontological horizon of the association, to address the contemporary ontological and existential challenges facing the Islamic and Arab nation, and related to its existence and destiny in a world that has been described as "a world without shame" and "a world without honesty."

[**Keyswords**: Palestine - Jerusalem - station - occupation - borders - evil].

مقدمة:

من أفظع الشُّرور المحيطة بوجود النوع الإنساني واستمراره الشر الأخلاقي الذي يُلحق بموجبه الإنسان الأذى بأخيه الإنسان، ومن أشدّ هذا الأذى الإنساني حصول الفتنة وسفك الدماء، وما الفتنة سوى انقلاب القيم وإلباس الحق بالباطل وكتمان الحقيقة، وما سفك الدماء سوى الإمعان في قتل الأبرياء وإزهاق أرواحهم ظلما وعدوانا، ولا يزال الظَّلَمة من بني آدم يفتنون الناس ويقتلونهم بغير حق، حتى ينسلخوا عن إنسانيتهم وينفكوا من مواثيق فطرتهم وشرائع دينهم، مهما سحروا أعين الناس واسترهبوهم واستخفوا عقولهم. ولعل أبرز مثال للشر في هذا الزمان هو ما يمارسه كيان الشر الصهيوني من أذى في حق الشعب الفلسطيني المستضعف.

ومما زاد هذا الشر إطلاقا فداحة تلبُّد شركائه وإجماع كبرائه على إبادة الفلسطينيين وسرقة أرضهم وإرثهم وثرواتهم، فهو ليس مجرد شر مشترك بين الناس بوصفهم آدميين، ولا شرا مبتذلا يمارسه عبيد السادة والرؤساء، ولا شرا سائلا يلفه الغموض، بل هو شر منسلخ من القيم والقوانين، أو «شر مطلق»، انسلخ به الإنسان عن إنسانيته.

أمام استفحال هذا الشر وإمعانه في الإبادة الجماعية للأبرياء، وأمام الخوف الذي أسكت أغلب نخب العالم ومنعهم من الشهادة بالحق في ما وقع، انتهض أحرار العالم في الشرق والغرب، لمقاومة ثقافة الشر ودفع واقع الشر، غير مبالين بوعيد المستكبرين وتهديد

أتباعهم من المُطبِّعين مع القتلة المحتلين. وكان ممن انتفض لنقد أسس هذا الشر المطلق الفيلسوف المغربي عبد الرحمن طه.

ولقد استغرب بعض القراء صدور كتاب «ثغور المُرابَطة: مقاربة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية»، في هذا الزمن وتحريره بهذه الجرأة، كما لم يخطر ببالهم انتقال صاحبه الفجائي من نقد «بؤس الدهرانية» و«شرود ما بعد الدهرانية» في الغرب، وإطلاق صيحة الرجوع إلى «دين الحياء» في عالمٍ فقَد المعنى لما فقد خُلق الحياء، إلى الصدع بموقف فلسفي يستشكل موضوع التحديات والرهانات الأنطولوجية (الكيانية) التي تواجه الأمة الإسلامية العربية في الوقت الحاضر، وخاصة تحدي «التفريط في القدس»، وتحدي «تخاذل الحكام»، وتحدي «التطبيع مع الشر».

ومن القُراء مَن أغضبه الموقف النقدي الذي أبداه صاحب الكتاب من بعض صور الاستبداد السياسي والخيانة الأخلاقية، وأفسد عليه صورته الذهنية الثابتة عن فكر الرجل، ولم يستسغ أن يرسم الرجل بجرأته هاته صورة واضحة عن المثقف المقاوم للترذيل، أي المثقف الائتماني المناضل الذي لا يُهادن ولا يداهن، بل يحيى وفياً لمبادئه وقيمه، مقتحما لعقبات نفسه وجمعه، دون تردد ولا وجل[1].

ولهذا خيَّب موقفه ظن الكثيرين ممن مردوا على تصنيف الرجل ضمن سياج «العقل المستقيل» الذي يفكر من داخل صندوق مُغلق لا يدخله الهواء، ويريدون له أن يكون آلة ساكنة لا محركا نشيطا، بل ودُّوا لو كان كما هُم كُسالى يُراؤون الناس ولا يتفاكرون إلا قليلا

في تناوله لموضوع الحلول الإسرائيلي بأرض فلسطين وتقتيل إنسانها توسل طه بمقاربة فلسفية أخلاقية معيارية تجمع بين التوصيف والتوجيه، في محاولة الجواب عن أسئلة الواقع الفلسطيني كما هو في نموذجيته وتفرده، وهي مقاربة تنشُد مما تنشده الاستقلالين: الفلسفي والحضاري، من داخل المجال التداولي من جهة، ودون مغادرة «المشترك الفلسفي كما يأخذ به أهل الاشتغال بالفلسفة» من جهة ثانية. وتتأطر هذه المقاربة فلسفيا بالنظرية الائتمانية بوصفها «نظرية أخلاقية تتأسس على حقائق الإنسان التي اشتركت فيها الأديان وتتوارثها الحضارات، سواء أقرت هذه الحضارات بأصولها الدينية أو أنكرت هذه الأصول».[2]

(1) انظر: أومليل، علي. السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1996م، ص257.

(2) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة: مقاربة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية، منشورات مركز مغارب، الرباط، ط 2، 2019، ص 12.

ولتجاوز آفات فصام الوعي والواقع لدى المثقفين العرب، ومعالجة التحدي الكياني المتمثل في احتلال أرضٍ تلتقي فيها العوالم (الشَّهادي والغيبي) كما تلتقي فيها الأبعاد (الزمني والسرمدي)، بُنيت المقاربة الائتمانية على مبدإ أساس، وهو أن «لكل شيء بُعدين، أحدهما، الصورة، وهي المظهر الخارجي؛ والثاني، الروح، وهي الجوهر الداخلي، بناء على أن الروح (أو الجوهر الداخلي) هي الأصل في تفسير الصورة (أو المظهر الخارجي) وأن الصورة إنما هي تعبير عن الروح، أو إن شئت قلت، هي تصوير لها»[1].

وفي الحالة الفلسطينية، تتمثل صورة الإيذاء في إيذاء «الأرض المباركة» وإيذاء «الإرث الفطري»، بينما تتمثل روح الإيذاء في إيذاء الإله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (الأحزاب:57) و«إيذاء الإنسان. وبناء عليه فـ«إيذاء الإله» هو الأصل في تفسير «إيذاء الأرض»، و«إيذاء الإنسان» هو الأصل في تفسير «إيذاء الإرث». ومعلوم أن مسألة الإله لا تعني الفلسطينيين وحدهم، وكذلك هي مسألة الإنسان، وبذلك يكون الإيذاء الإسرائيلي إيذاء لكلِّ الناس، وعلى عاتق جميع الناس واجبُ دفعه. ودفعُ هذا الإيذاء الذي لحق الفلسطينيين بالأصالة والإنسانية بالتَّبع، والذي وصفه بـ«الشر المطلق» لا يكون إلا بالمرابطة في الثغور التي يأتي منها، وهي ثغور الاحتلال وثغور التطبيع. فما السبيل إلى دفع هذا الإيذاء المزدوج واجتثاث جرثومته؟

أولا: الروح الرباطية: مفهومها وأوصافها

على خلاف مواقف متفلسفة السُّلطة (بمعنييها الفلسفي والسياسي) الذين اختلطت دماء تفكيرهم بدماء الغالب، فلا ينطقون إلا بمقتضى ما يرضي الأسياد، أخذ طه عبد الرحمن على عاتقه الانتصار للقيم والانتهاض للقيام بواجب «بثّ الرُّوح الرِّباطيّة»[2] في عالم امتلأ نفاقا وتطفيفا وازدواجية، والروح الرباطية هي روح إسرائية مقدسية تتطلع إلى الجمع بين تحقيق آيات السماء وتحصيل بركات الأرض، تستمد معناها من قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء:1)، إذ في هذه الأرض المباركة يُصنع نموذج المرابطة الكونية،

(1) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 20.

(2) المرجع نفسه، ص 50.

فتكون «المرابَطة المقدسيّة نموذج المُرابَطة العالميّة»[1]، وبسريان الروح الرباطية في قلب الإنسان المعاصر وعقله يقتدر على مواجهة آفة الاحتلال (الشر المطلق)[2]، جنبا إلى جنب دفع فتنة التطبيع (الشر المترع) وكسر شوكته التي تلتقي مع روح «الحلول الإسرائيلي»[3] في إفساد الفِطَر المؤصَّلة قلباً وسلباً؛ بقلبِ قِيمها («إفساد الذاكرة» و«إفساد الثقة بالذات» و«إفساد التوجُّه»)، وسَلبِ تلك القيم («تضييع الطبيعة» و«تضييع الروح» و«تضييع القداسة»)[4]. ومن يؤدي واجبه الأخلاقي في إيقاظ عقول الناس وحثهم على مواجهة الشر ودفع العدوان، لا يضره آنئذ من استقل قوله أو رماه بتهمة «حراسة الهوية»![5]

إن الروح الرباطية ليست روحا قومية عرقية ولا روحا لائكية لادينية، ولا روحا ديانية طائفية، غرضها إنشاء أو حفظ حدود دولة سلطانية، أو الانتصار لعرق من الأعراق البشرية، وإنما هي روح وجودية فطرية إحيائية، غرضها إيجاد «خلافة عمرانية»[6] قوامها حفظ كرامة الإنسان مع حفظ وجوده حيث كان. وتجنبه آفات «البؤس»، و«الشرود»، و«المروق». ولذلك فأخوفُ ما تخافه الكيانات الظالمة هو «أن تنبعث هذه الروح في النفوس، هذا الانبعاث الذي ترى فيه نهايتها»[7].

ويَذْكُر من أوصاف هذه «الرُّوح ٱلرِّباطيّة» أربعةً:

1. روح مؤسّسة: فهي «تُؤسِّس القوّة المادِّيّة المُستندة إلى المعرفة بمُستلزَمات الوقت، عُدَّةً وعَتادًا»[8].
2. روح جامعة: لكونها «تَجمَع بين الأساليب الجماهيريّة التي تُطْلِق تَدفُّق الطّاقات وتُوسِّع نطاق التأثير وبين الأساليب الدفاعيّة التي تنتقي الأهداف بدقّة والأوقات بثقة»[9].

---

(1) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 50.

(2) المرجع نفسه، ص 19.

(3) الإحلال هو احتلال الأرض (إيذاء الإله)، والحلول هو احتلال الفطرة (إيذاء الإنسان).

(4) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 24-35.

(5) حرب، علي. أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة 3، 2004، ص 55.

(6) المرجع نفسه، ص 223.

(7) المرجع نفسه، ص 222.

(8) المرجع نفسه، ص 51.

(9) المرجع نفسه، ص 51.



3. روح متوسلة: لأنها «تتوسّل بكلّ الأسباب المعنوية والماديّة التي تُناسب كل رباط على حدَةٍ حيثما كان، مُتدرّجة في استعمالها بحسب التطوّرات ورُدود الأفعال، ومُعدِّلة لها بحسب الإنجازات والتطلّعات.»[1]

4. روح متجدِّدة: لأنها «تُمارِس الابتكاربقوّة، تنويعا للوسائل وتجديدا للأساليب وتطويرا للقُدرات وفتحا للآفاق، حتّى تُحافظ على عُنْفوانها وعطائها، فتتمكّن من التصدّي لمختلف أشكال تأبيد التّسلُّط التي يلجأ إليها الاحتلال»[2].

ثانيا: خصائص المرابطة المقدسية

«المرابطةُ ٱلمقدسيّة»[3]، هي باختصار مرابطةٌ من أجل استعادة الحرية وتحقيق الاستقلال، وذلك بدفع تدنيس الأرض ودفع تزييف الفطرة، أي تحرير الأرض المقدسة واستعادة الأمة المرابطة لسلطانها واستقلالها، إذ المرابطة تفعيلٌ أخلاقي للمُقاومة الكونيّة حتّى يُبعَث «الإنسان الجديد» عاملا مُؤْتمَنًا شاهدا ومأمُونًا على كلّ شيء، مجتثا «تفاهة الشر» من جذورها لتتساقط أغصانها وتجف أوراقها، وتبقى المرابطة هي أنجع الوسائل التي تُوصِّل إلى دفع الأشكال المتعددة للإيذاء، وعلى رأسها الإيذاء الإسرائيلي.

فماذا عن خصائص هذه المرابطة:

1. مرابطة ائتمانية لا سياسية

المرابطة الائتمانية هي مرابطة فوق سياسية، إذ الهمُّ السياسي ضيقٌ ومُتعِب، لأنه نظر تملُّكي واحتيازي، محكوم بمبدأ «الحيازة المرسلَة للإنسان»، ناهيك عن كون المقاربة السياسية غالبا ما تغفل عن البعد الغيبي كما تُسقط البعد السرمدي[4]، أما الهمّ الائتماني فهو واسع ومطَمئن، لأنه أماني وتسخيري، محكوم بمبدأ «الأمانة المرسلة للإنسان». ومعلوم أن الفعل السياسي للدولة الحديثة لا يستطيع حفظ المقاصد الائتمانية العالمية[5]، ولا

(1) حرب، علي. أوهام النخبة أو نقد المثقف، ص 51.

(2) المرجع نفسه، ص 51.

(3) انظر تفصيل القول في المفهوم في ص 62 من الكتاب.

(4) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 19.

(5) يلتقي طه هنا مع وائل حلاق وكثير من الأخلاقيين المعاصرين.

إنشاء أو حفظ ثقافة الائتمان التي تتأسس على الفطرة الإنسانية، حيث «الفطرة هي عبارة عن الذاكرة التي تحفظ القيم والمعاني الأصلية المبثوثة في روح الإنسان منذ خلْقه، نازلة من الروح منزلة الجوهر»[1].

قد يبدو هذا الضرب من التحليل والنقد «على مقتضى التأمّل الفلسفي المبني على القيم، لا على مقتضى التكهُّن السياسي المبني على المصالح»[2]، قريبا من أفكار الفيلسوف الألماني ماكس ستيرنر[3] في نقده لضيق النظرة السياسية السلطوية للاجتماع البشري، أي نقد هيمنة فكرة الدولة والسيطرة على الإرادة العامة لمجموع المواطنين، إلا أن طه يختلف مع ستيرنر في عدم تفضيله كسر جهاز الدولة لصالح رابطة الحريات المتخلصة من كل سلطوية أخلاقية كانت أو قانونية، وإنما بتوسيع نظر الإنسان ليتجاوز حدود الحيازة السياسية إلى النظر في أفق المخالقة الائتمانية.... رغم «أنّنا لَا زِلْنا بعيدين عن إدراك هذه الحقيقة؛ فالإنسان الفلسطينيّ لَا يُمكن أن تُعرَف حقيقتُه، ولَا أن تُدفع أَذِيّتُه، إلّا بمُقاربة تصل العالم الشَّهاديّ لأرضه بعالمها الغيبيّ، كما تصل البُعد الزّمنيّ لإرثه ببُعده السَّرمديّ».[4]

2. مرابطة مقاوِمة لا مُطبِّعة

لعل أهم فكرة في نظري يتمحور حولها الكتاب هي فكرة المقاومة، وكما يمكن وصف صاحب هذا الكتاب بـ«الفيلسوف المقاوم» أو «فيلسوف المقاومة»[5]، وليس كما سماه بعضهم «فيلسوف الحراك»، لأن المرابطة إرادة مستمرة والحراك حماس مؤقت. وكونها مقاومة لا يعني أنها محكومة بإرادة القتل، بل بإرادة الإحياء. يقول طه: إن «المرابطة المقدسية هي المقاومة التي تلازم ثغور الأرض المقدّسة لتتصدى لتدنيسها، وتعيد إليها

(1) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 24.

(2) المرجع نفسه، ص 11.

(3) يوهان كاسبر شميتد (بالألمانية: Max Stirner) المعروف بماكس شتيرنر فيلسوف ألماني، يعتبر من أحد آباء الفلسفة العدمية والوجودية وما بعد الحداثة واللاسلطوية وخاصة السلطوية الفردية. أشهر كتبه «الأنا العليا وذاتها»، طبع لأول مرة سنة 1844 في لبسيا.

(4) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 19.

(5) لعل في ذلك تشبيها له بالفيلسوف الألماني يوهان غوتليب فيشته (1762-1814م)، انظر كتاب «فيشته فيلسوف المقاومة»، حسن حنفي، المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية، ط 1، 2002م، وقد أهداه الكاتب إلى المقاومة الفلسطينية.

قداستها، وتلازم ثغور الفطرة المؤصّلة لتتصدى لتزييفها وتعيد إليها أصالتها»[1]، والنتيجة هي «أن المرابطة المقدسية ليست فضاء ماديا بقدر ما هي فضاء معنوي»[2] مفتوح وممتد في الزمان والمكان، وهي تتعارض مع الروح المستقيلة أو القاعدة أو المساوِمة، أو قل باصطلاح عصرنا: الروح المطبِّعة.

ويحسب للفيلسوف طه انتصاره للمقاومة الفلسطينية وجعل منها شرف كل مظلوم في الأرض، ودون المقاومة وثقافة المقاومة لا تجد سوى التطبيع وثقافة الإنشاء، وفي التطبيع كل شيء يباع وفي الإنشاء كل شيء يقال. ولذلك انتقد عجز السلطة الفلسطينية وعجز المطبِّعين من الحكام والأحزاب. بل عدَّ «التزامات السلطة مع الكيان الإسرائيلي جلبت للفلسطينيين من فاحش الأذى ما لم يكن يجلبه لهم عدمها، إذ أن وفاءها بها لم يكن يقابله من جانب هذا الكيان مثله، ثم إنها أفضت كما هو بين إلى تداخل المصالح والمآرب مع هذا الكيان استتباعا للجانب الفلسطيني، بل أفضت إلى طلب المكاسب الإدارية والحظوظ المادية، حتى فترت الهمم وأنِست، برغد العيش، النفوس؛ وحينئذ، لا غرو أن يستديم الكهول والشيوخ منهم وجودهم في رأس المناصب السياسية والإدارية، غير قادرين على الانبعاث الرباطي الذي لا يقدر عليه إلا الشباب وأولئك الذي لم تفسدهم هذه الوظائف، ذكورا وإناثا»[3]. ولذلك فالمطبِّع يستبدل الإرادة الدنيا بالفطرة الأعلى، ويستبدل فاسد الأوهام بصحيح الحقائق، فيقضى بذلك على نفسه بموتين: «موت الفطرة» و«موت الحكمة»[4]. ولهذا فـ«المطبع لا يتوب من تطبيعه، بل على العكس يرسخه، حتى يصير له سجية»، فيفقد فرقان ضميره ويتَّضع لمن يُذله، إلى أن يتحول إلى «ذات ضائعة ومضيعة، وتضييعها ذو وجهين: تضييع للقيم وتضييع للأمم»[5].

ومثال ذلك في واقعنا حال «الديانيين» (الإسلاميين) الذين تولوا السلطة في بعض البلدان العربية، واحتوتهم الصيغة الحديثة للدولة احتواء، حتى لا فرق بين وجودهم في السلطة وبين وجود «الدنياويين»(العلمانيين) فيها، بل إن بعضهم، حفظا لمصالحه

(1) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 36.
(2) المرجع نفسه، والصفحة.
(3) المرجع نفسه، ص 44-45.
(4) المرجع نفسه، ص 28-29.
(5) المرجع نفسه، ص 35

الاحتيازية في هذه الصيغة، أخذ يدعو إلى ما يشبه الفصل العلماني بين الديني والسياسي، مُطلقا عليه اسما آخر يلبِّس معناه أكثر مما يستقل بمعنى محدد، وهو «التمييز»، إذ إن كلا من «الفصل» و«التمييز» يدل على معنى «الفرق»»[1].

3. مرابطة إشهادية لا تزييفية

مرابطة إشهادية فوق أرضية، تتصدى لتزييف الفطرة وتغطية الحقيقة، متحققة بميثاق الإشهاد الأول الذي أخذ فيه الإنسان العهد الإلهي على الوفاء لفطرته وفطريته، وليست فطرة المرابط سوى فطرة الله فيه. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 30، 31]. في مقابل فطرة المطبعين مع المعتدين التي هي فطرة ممسوخة ومحتلة، إذ «فطرة المطبع هي إرادة الإسرائيلي فيه، إذ أضحى الإسرائيلي نازلا منه منزلة إله حال فيه»[2].

والمرابطة الإشهادية هي مرابطة إنسانية فوق قومية، تجعل من الصراع الإسلامي الإسرائيلي صراعا إنسانيا «يندرج فيه كل أحرار العالم» ضد ثقافة الاحتلال الإسرائيلي التي تحمل العداء للعالم كله، وتتعارض مع الروح الاصطفافية المتحيزة للقوم أو الطائفة أو الإيدلوجيا، وتتجاوز المكرورات القديمة التي تبجل الذات الحزبية أو القومية أو العرقية، من قبيل «القومية العربية» والصراع العربي» والوحدة العربية» و«النهضة العربية»، وتنتصر للميثاق الإنساني، الذي يوجب مما يوجبه على المثقفين «أن ينكروا بكل قوة، قتل الإنسان، كائنا ما كان مصدره، حاكما أو محكوما، وكائنة ما كانت أسبابه، حقا أو باطلا، وكيفما كان وصفه، ظلما أو عدلا، وحيثما كان مكانه، مسجدا أو مقصفا؛ وذلك لأنه يعد السكوت عن القتل إسهاما فيه، بل دعوة إليه، فالساكت عن القتل في الفتنة القابيلية، قاتل؛ فلا أبغض إلى قلب المثقف المرابط من «ثقافة العنف»، فما الظن بـ«ثقافة القتل»؟[3]

ونظرا لأن المثقف المرابط هو الذي يعتقد بقوة أن جوهر الدين هو «إنسانيته»[4]، فإن بذل الروح الرباطية في كل مكان، هو من أجل كسر شر الاحتلال وتخليص العالم من أزمته الائتمانية.

(1) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 222.
(2) المرجع نفسه، ص 52.
(3) المرجع نفسه، ص 217.
(4) المرجع نفسه، ص 209.

4. مرابطة مستقبلية لا حملة زمنية

تنشُد المرابطةُ المستقبل، ولا تجمد على مقولات المذهب التاريخي[1]، والقراءات التاريخانية (نقد منهج عبد الله العروي)، والأفق الأنطولوجي للمرابطة المقدسية يتعارض مع الروح التطبيعية الجبانة والخانعة. فالمرابط موصولة إرادته بإرادة الله، والمقاوم يرفض التطبيع ليحفظ قداسة الأرض، ولو سُلبت الأرض، فهو وحده القادر على حماية الأرض، إذ «عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ مَا يَسْتَحِقُّ الحَيَاةْ: عَلَى هَذِهِ الأرضِ سَيِّدَةُ الأُرْضِ، أُمُّ البِدَايَاتِ أُمَّ النِّهَايَاتِ.»[2] كما قال الشاعر محمود درويش.

والمثقفُ الملازم لثغره لا يبرحه هو المقاوم الفطري الحكيم الذي يُعطى إرادة من إرادة الله، فيصبر ويصمد، لا تلين له قناة ولا يقعقع له بالشنان. تمنعه فطرته وحكمته من التطبيع، إذ الفطرة هي القيم التي ولدت معه، والحكمة هي القيم التي استمدت من قيم الفطرة، لذلك فـ«المطبّع آثر موت روحه على موت بدنه»، والإسرائيلي عندما يحل في الإنسان يقتل فيه إن استطاع روح الفطرة وروح الحكمة. ولذلك كانت حقيقة التطبيع هي أنه «تضييعٌ للطبيعة وتضييع للروح وتضييع للقداسة وتضييع للحياء، متمثلا في نسيان النظر الإلهي وفقدان التمييز الأخلاقي وممارسة النفاق على أوسع نطاق»[3].

ومن أجل ذلك يؤدي المثقف المرابط واجب النصح للأمة وللحاكم، يقول طه: «ويعمل المرابط المقدسي على تبصير الحاكم بهذه المخاطر التي لا يتوقف حليفه الإسرائيلي عن تعريضه لها، لعله يتنبه إلى ما يحاك له، ويأخذ حذره؛ وقد يكون هذا الاحتياط من الحاكم خطوة هامة في طريق تحريره من نير الإرادة الإسرائيلية؛ فآنذاك، ينتقل به هذا المرابط، عن طريق الكشف عن المزيد من مكر هذه الإرادة، إلى خطوة أخرى قد تنهض همته إلى التخلص منها؛ وهو في كل ذلك، يرقب اليوم الذي يوقن فيه الحاكم بأن ناصحه لا مطمع له، أصلا، في منازعة حكمه، عسى أن يزداد ثقة به ويطمئن إلى نصائحه، لان العروج الملكوتي الذي تتمتع به فطرته يخلص عمله من الأغراض، ناهيك عن التسلط على غيره؛

(1) انظر: بوبر، كارل. عقم المذهب التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، ترجمة: عبد الحميد صبرة، منشورات المعارف، الإسكندرية، ط 1، 1959، ص 55.

(2) درويش، محمود. قصيدة «على هذه الأرض»، ديوان فلسطين، منشور في موقع (على هذه الأرض)، شوهد يوم 25 ماي 2021.

(3) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 62.

فكل همه هو أن يفرغ ذمته من مسؤولية دفع الأذى الإسرائيلي عن الإنسان، فلسطينيا كان أو غير فلسطيني»[1].

ثالثا: الأفق الأنطولوجي/الكياني للمرابطة

المرابطة المقدسية مرابطة كيانية/أنطولوجية تعطي أسبقية الواجب الأخلاقي على الحق الامتلاكي، إذ الأصل هو الائتمان لا الامتلاك. ولقد أضحى الصراع بفعل هيمنة الامبريالية المعولمة للقيم والرغبات والبضائع إلى قضية عالمية فوق إقليمية تتجاوز خطابات أحلام القوميات اللغوية والعرقية وتتجاوز أوهام الفكرانيات الشرفية والغربية، مما يتطلب منا الوعي بطبيعة التحولات الكبرى الجارية في العالم وآفاقها، لنجتهد من موقعنا في إنجاز فعلٍ يخصنا ويشهد لحضورها المرابط المسؤول، فنكون فاعلين ومؤثرين، لا منسحبين ولا تابعين.

إن التحدّيات والأحداث المعاصرة التي تُواجه الأمة الإسلامية هي تحدّيات كيانيّة وجودية، تتعلق بوجودها ووجهتها ومصيرها في عالم تم توصيفه بأنه «عالم بلا حياء» و«عالم بلا أمانة»؛ ولذلك لا يكفي التحليل السياسي في فهم وتفسير الأحداث التي تتأذى منها الأمة اليوم، رغم زعمه العمل بمنطق «التحليل الملموس للواقع الملموس»، بل تستدعي طبيعة التحديات توسيع النظر وتعميقه ليكشف على جذور تلك التحديات، ويفكر في المداخل الكلية للتخلص من عبئها، ولهذا آثر الفيلسوف طه تقديم النظر الفلسفي على التحليل السياسي؛ فواجب الفيلسوف أن يسابق إلى الاشتغال بها، حتى لا تهلك الأمم الإنسانية بما كسبت أياديها»[2]، وليس النظر الفلسفي بإطلاق وإنما النظر الفلسفي المخصوص بالمقاربة الائتمانية.

إن التحديات الكيانية التي صنعتها الأحداث المتراكمة لا تدفعها ردود الأفعال الاستعجالية، وإنما تتولى دفعها الروح الرباطية ذات الأفق الكياني الواسع الذي ينفتح في المرابطة المقدسية،أيتربية ثقافةالمرابطة الإنسانية العالمية في قلوب الناس وعقولهم، فهي وحدها التي تتصدى لثقافة الإفساد: فساد الأفكار وفساد الأعمال، بالمرابطة في مختلف الثغور التي ائتُمن عليها الإنسان الحسية والمعنوية، ثغور الأرض وثغور العرض، ثغور القول

(1) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 59.

(2) المرجع نفسه، ص 11.

وثغور الفعل، ثغور الإنسان وثغور الكيان، ثغور التربية وثغور السياسة، ثغور الأسرة وثغور النصرة، بدءا بالمرابطة المقدسية إلى المرابطات الأقدسية. حيث المرابطة حالةُ سجودية «تلازم المرابط في كل أفعاله وأوضاعه»، والثقافة في أوطاننا لم تعد تُمارَس على أصولها المعرفية والأخلاقية، مثل غيرها من المفاهيم التي انزاحت عن أصولها إلى تأدية طقوس الإذعان في حجر المتغلب بالسيف الذي سمم المشهد الثقافي والعلمي والديني، وانقلب المثقف خفيفا مشغولا عن قيمه بمصالحه ومخاوفه ومطامعه. لذلك دعت الحاجة إلى التأكيد على أهمية التربية على المرابطة الفطرية الواعية عوض التنويم بالانحياز السياسي والتخدير بالاصطفاف الفكراني. إذ «الفيلسوف الحقيقي أخلاقي بطبعه، فلا يتحزب أو يتقلب، ولا يتيامن أو يتياسر، ولا يساوم أو يناور، ولا يتأمَّر أو يتآمر»[1]، وإنما يبذل جهده ليحافظ على وفائه للأمانة التي طوقت عنقه منذ الأزل، قائما لله شاهدا بالقسط بين الناس

وبناء على ما سبق يكون الأفق الكياني لثقافة المرابطة هو إنشاء هوية مقدسية موسعة قوامها ثقافة ائتمانية تنتصر للقيم الإنسانية الإحيائية الإيخائية، مع الأقارب والأباعد، ومع غير الإنسان من مخلوقات الله، وتَعرض في مقابل ذلك بل تعارض القيم الإيذائية العدائية

وحينما يتحدّث الأستاذ طه باختصار عن كيفيّة تصدّي «المرابطة المقدسية» لاحتلال الأرض وتدنيسها، وإيذاء بارئها وساكنها، فإنه يقصد منها –من بين ما يقصده- «استرداد الأمانة المسلوبة»، وتقويم الثقافة الزنيمة التي بين ظهرانينا، ولا يتم ذلك إلا بشرطين:

- الشرط الأول: حفظ الأمانة، بـ«أن يَكون مقصد المرابطة لا تحصيل مِلكٍ بعينه، ولا حفظ أمانةٍ بعينها، وإنما حفظ ميثاق الأمانة أو حفظ مبدإ الأمانة نفسه»[2].
- الشرط الثاني: تعميم الرباط: بـ«أن يكون منهجها، لا الوقوف عند القُوّة المادِّيّة، وإنما إسنادها إلى القُوّة الرُّوحيّة، ولا الانحصار في كيفيّة واحدة بعينها للمواجهة، وإنّما التّعاطي لكلّ الكيفيّات المُمْكنة، ولا الجمود على هذه الكيفيات، وإنما الابتكار الدائم لها، ولا تخصيص الرِّباط بأرض فلسطين، وإنما تعميمه على الأرض كلها، مع حفظ خصوصية كل رباط، حيثما كان.»[3]

(1) طه، عبد الرحمن. حوارات من أجل المستقبل، منشورات جريدة الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 2000م، ص 35.

(2) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 63.

(3) المرجع نفسه، ص 63

خاتمة

نخلص مما سبق إلى أن المسؤولية الأخلاقية والعلمية للمثقف والفيلسوف في كل أمة وفي كل ملة تقتضي منه الانتصار لقيم الحق والخير والجمال، ورفض الظلم والاعتداء والاحتلال، ومواطن الاستخفاف بالقيم وترذيل الإنسان هي نفسها الثغور الاستراتيجية التي يجب أن يرابط فيها المثقف حفظا للأمانة ونصرا للحق ودفعا للباطل.

وفي هذا السياق انقسم مثقفوا زماننا إلى ثلاثة أقسام، قسم يدور مع الحق ويرابط في ثغره غير مبال بلوم الآخرين، وقسم متحيز للسلطة الغالبة في العالم يسوغ مقولاتها وينحاز لمصالحها، وقسم منتكس يختفي عن الأنظار كلما طُلب إليه أن يبدي موقفه مما يجري في العالم من حوله. ولذلك تجد أغلب مثقفي زماننا لا يقومون بمهماتهم ولا يحفظون الأمانة الملقاة على عاتقهم، ولا يتصدون لمظاهر الحلول والاحتلال والانحلال الواقعة في أوطانهم، فيخذلون قيم الحق ويتخلفون عن أداء واجب الشهادة بين الخلق، وفي المقابل يتكففون أبواب السلاطين ويتزلفون للجهات النافذة بغية الظفر بأعطياتها[1]. ولعل هذا الموقف الصريح الفاضح سيكون صادما لكثير من أنصاف المثقفين الذين طفقوا يبيعون العلم والدين بالتبن والتين.

وفي خاتمة الكتاب أرجع صاحب «ثغور المرابطة» أسباب خيانة المثقفين لقضايا دينهم ووطنهم إلى معاناتهم من ثلاث عُقد مركبة: عقدة الدين وعقدة العقل وعقدة النقص.

1. عقدة الدين:(عقدة روحية)، ويقصد بها عقدة تقليد مثقفي العرب لمثقفي الغرب اللادينيين في معاداة الدِّين، فكما يعادي كبراء أولئك الدّين يعادي هؤلاء دينهم، دون مراعاة الفروق بين الدينين والواقعين والتدينين، إذ «ما أسرعهم إلى تقليد المفكرين العلمانيين في مسألة «عدم الإيمان»[2]، لذلك تجدهم يعادون الدين إطلاقا وتقليدا، بل ينقلون أدلة الغربيين عن إنكار دينهم نفسها، ظانين أن إمَّعيتهم في نقل إلحاد غيرهم سيصيب قراء مكتوبهم بالإلحاد أيضا كما أصابهم هم، فقلدوا العلمانيين مرتين: مرة في إنكار الدين أو لادينية الدين، ومرة في الانحياز لدين اللائيكية، أو قل دين اللادين. حتى أنكروا وجود الإيمان في الفلسفة، بل أنكروا اجتماع الإيمان مع العقل.

(1) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 235.
(2) المرجع نفسه، ص 241.

2. عقدة العقل/المنطق: (عقدة ذهنية)، ومفادها كراهية أغلب مثقفي العرب للمنطق كراهيتهم للدِّين، فنظرا لأن أغلب الجامعات العربية لا تُدرس المنطق المعاصر، فقد بقي مثقفوهم مقلدة لمضامين ثقافة غيرهم، عاجزين عن النقد ومن ثمة عاجزين عن الإبداع، مع العلم أن «المنطق الذي يعد جوهر المنهجية الفلسفية يفيد في مقاربة القضايا الإيمانية إفادته في مقاربة القضايا العقلية، حتى لا تعارض بين الضربين من القضايا»[1]، وبناء عليه فالذين يعادون المنطق يعادون العقل، لأن المنطق ميزان العقل، وإن رفعوا شعار العقلانية فإنهم يفتقرون لأسبابها ويستعملونها في غير محلها.

3. عقدة النقص: (عقدة نفسية)،حيث يعيش المقلدة عالة على غيرهم، فلا تجدهم يستقلون بإشكالاتهم وقضاياهم، بل في الغالب يدورون مع نماذج يتخذونها أصناما يعبدونها وينتصرون لها، كما يدور المصلي مع القِبلة، فما استشكلوه هناك استشكلوه هنا، وما أهملوه هناك تحاشوه هنا، بلا هوية ثقافية تخصهم وتميزهم عن غيرهم، ثم إنهم يفتقرون إلى القدرة على الاطلاع الكافي على المصادر الأصلية للثقافة الغربية ذاتها، كما لا يملكون الكفاية من التعمق في دراسة التراث الإسلامي العربي بما يؤهلهم للاستقلال والإبداع. وهو عيبٌ في تكوينهم أرداهم في التيه والضياع.

(1) طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، ص 237.

لائحة المصادر والمراجع

• أومليل، علي. السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1996م.

• باتريك جيه، بوكانن. موت الغرب، ترجمة محمد محمود التوبة، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1، 1426هـ/2005م.

• بوبر، كارل. عقم المذهب التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، ترجمة: عبد الحميد صبرة، منشورات المعارف، الإسكندرية، ط 1، 1959م.

• بوحناش، نورة. الأخلاق والرهانات الإنسانية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 2013م.

• حنفي، حسن. فيشته فيلسوف المقاومة، المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية، ط 1، 2002م.

• حرب، علي. أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 3، 2004م.

• طه، عبد الرحمن. تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994م.

• طه، عبد الرحمن. الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2005م.

• طه، عبد الرحمن. حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط2، 2011م.

• طه، عبد الرحمن. العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1997م.

• طه، عبد الرحمن. روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس حداثة إسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2006م.

• طه، عبد الرحمن. رُوح الدِّين: من ضَيق العَلْمانية إلى سَعَة الائتمانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2012م.

• طه، عبد الرحمن. بؤس الدهرانية: النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2014م.

• طه، عبد الرحمن. شرود ما بعد الدهرانية، النقد الائتماني للخروج من الأخلاق، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط 1، 2016م.

• طه، عبد الرحمن. ثغور المرابطة، مقاربة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية، مطبعة أمين كراف، سلا، ط1، 1440هـ/2018م.

• طه، عبد الرحمن. سؤل العنف بين الائتمانية والحوارية، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط1، 2017م.

• طه، عبد الرحمن. حوارات من أجل المستقبل، منشورات جريدة الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 2000م.

• فوكو، ميشال. هم الحقيقة، ترجمة مصطفى كمال وآخرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2006م

• فخري، ماجد. الفكر الأخلاقي العربي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1979م.

• فرانز، فانوف. معذبو الأرض، مدارات للأبحاث والنشر، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، القاهرة، ط 2، 1436هـ/2015م.

• العروي، عبد الله. أزمة المثقفين العرب، ترجمة ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1978م.

• Weber, Max. Le savant et le politique, trad. j. freund, collection10/18, Paris, 1996.

• Arendt, Hannah, Condition de l'homme moderne, Editions Clamann-Lévy, Paris, 1983.

• Touraine, Alain, Critique de la modernité, édition fayard, 1992.